شبهات حول قضية النسخ

الشيخ : فوزي سعيد

مقدمة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ به تعالي من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا إنه من يهدِ الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحدة لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ)(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا) أما بعد ، فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هديُ محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار ، وبعد :

شبهات حول قضية النسخ في الكتاب والسنة

(1) مقدمة : لقد جاء الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالبينات ، أي بالمعجزات والآيات الدالات علي صِدْقِه وأكبر مُعْجِزَاته : هو كتابه وهو القرآن العظيم الذي أنزله الله بِعِلْمِه ، أي متضمناً لِعِلمٍ لا يعْلَمُه إلا الله من أسرار الخلق وما كان وما سيكون إلي يوم الدين ، قال تعالي :((قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا)) الفرقان .

فإذا أكتشف الإنسان شيئاً من أسرار وحقائق المخلوقات في الآفاق أو في الأنفس ، في الفَلَكَ أو في البحار أو في علوم الأرض أو في الكيمياء أو في أطوار خلق الإنسان أو غير ذلك مما لا يحصى ، ثم وجد أن ذلك العلم مسطور ومكنون في القرآن بذكر تلك الحقائق والأسرار

التي لم تكن معروفة من قبل ، فحينئذ يَسْتَيْقن جميع العقلاء أن هذا القرآن مُنَزَّل من العليم الخبير خالق كل شيء ، والذي يعلم السِّرَّ في السماوات والأرض . ولا يزال ذلك الأمر مستمرا ومتجددًا إلي يوم القيامة حتى يَسْتَيْقنَ جميع الأجيال إلي يوم الدين أنه الحق من رب العالمين . هذا بخلاف وجوه الإعجاز الأخرى التي يختص بها طلاب العلم . ومِنْها انعدام التَّنَاقض (الاختلاف) ، ولا يزال الذين في قلوبهم زيغ يبحثون في القرآن عن شيءٍ من التَّناقض يَخْرجُون به علي الناس ، كما قال تعالي :((فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ)) آل عمران . ولم ولن يتوقف أعداء الإسلام عن البَحْث والتَّلْفيق لَعلَّهم يَجدون شيئا ، ويتعاون شياطين الجن والإنس في هذا السَّبِيل ليصدُّوا الناس عن الحق ، فَيُقَيِّضُ اللهُ عز وجل من العلماء من يتلقَّى شُبُهَاتِهم فيفنِّدَها ويبطلَها ، وَيَرُدَّ كيْدَهم في نحورهم بالحَّجةِ والبيان والبرهان ، فيظهر لأصحاب العقول دليل جديد علي أنه الحقُّ من عند الله فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ، وأَمَّا الذين في قلوبهم مرض ، فقلوبُهم فيها من الجهل والظلم والمرض ما يَسْمحُ بدخول الشبهات وزُخْرُف القولِ ، فتزداد شَكًّا وَرَيْبًا ورجْسًا إلي رِجْسِهم . وبهذا يتميزُ الصَّادِق من الكَاذِب ، وهذه سنة ربَّانية علي مَرِّ العصور لا تتبدَّل ولا تتحول ، حيث يجعل الله للحق عَدُوًّا يدفع بالأباطيل والشبهات ، فيتصدَّى لهم أهل الحق بالحجة والبرهان فَيُدْمَغ البَاطِلُ فإذا هو زاهق ، علاوة علي تميز الصَّادق من

الكاذب ، وازدياد الذين آمنوا إيمانا ، وازدياد الذين في قلوبهم مرض رجسا إلي رجسهم ، قال تعالي :((بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ)) الأنبياء . وقال :((أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)) العنكبوت . وقال :((وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ)) الأنعام . وليْس هذا موضع شرح هذه الآيات ، والمقصود هنا بيان أَنَّ القرآن لا يتناقض أبدا ، مع أنَّ الله ضَرَب فيه من كل مثل ، وما فرَّط فيه من شيء يلزم الناس إلي يوم الدين ، فلو كان من قول البشر وتصانيفهم لامتلأ تناقضا واختلافا ، لا سِيَّما وقد اشتمل علي كل علم يحتاج إليه الإنس والجن بما في ذلك أنباء الأولين والآخرين ويوم الدين وشرع رب العالمين . قال تعالي :((أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا)) النساء . فإذا تَبيَّن ذلك للعاقل فآمن به ، فليس له أن يقول : أَقْبَلُ بعضَه وأرفض بعضه ، أو يقول : إنَّ في صَدْرِي لحرجًا من قضية كذا (النسْخ مثلا) أو آية كذا ، بل يقول كما يقول الراسخون في العلم :((آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا)) آل عمران . قال تعالي :((كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى

لِلْمُؤْمِنِينَ * اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ))

الأعراف . فإذَا كُنَّا قد آمنَّا أنه منزَّلٌ من عند الله فقد لزمنا أن نقول سمعنا وأطعنا ، فإذا اشتبه أو أشكل علينا فهم شيء من قضاياه أو آياته أو أسراره وحكمته وأمثاله ، فقد وجب علينا أن نسأل أهلَ الذكر ، وهم علماؤه ، فَإِنْ فَعَلْنَا : فقد زال الاشتباه ، وتَميَّز الحق من الباطل ، وتكشَّفَتْ من أسْرارِه ما نَزْداد به إيمانا .

وكمثال علي ذلك : قضيَّة النسخ في الكتاب والسُّنَّة ، وسوف يتضح – بعد بيان بعض حكمة النَّسخ وبعض أسراره – أن هذه القضية قد تُعَدُّ من وجوه الإعجاز عند العقلاء ، لكن كثيرا من أهل الكتاب دَأَبُوا عَلَي التَّهجُّم علي القُرْآنِ بِسَبب هَذِه القضية وغيرها ، مستغلين جهل أكثر المسلمين بدينهم بعامة ، أو جهلهم بأمثال هذه القضايا بخاصة .

ومن عجبٍ أنَّ هؤلاء المُتَهَجِّمين نَسُوا أنَّ بَيْتهم من زجاج . فكان عليهم ألا يقذفوا الناس بالحجارة ، كما يقول المثل (اللِّي بيته من زجاج ..) لأن الناس لو رَدُّوا عليهم بالمثل لَهدَّمُوا بَيْتَهم عليهم بسهولة .

إنني لأشعر باستعلاء الإيمان ، وبنعمة الله بإنزال القرآن ، عندما أجد فيه كروية الأرض ودورانها حول نفسها أمام الشمس لإحداث الليل والنهار ، ودورانها حول الشمس لإحداث الفصول الأربعة ، وغير ذلك من الحقائق المفصلة ، حيث الوصف القرآني في المتناهي في

الدقة والإحكام ، باللغة العَربيَّة المتناهية في البيان ، في زمن إنزال القرآن حيث لم يكن أحدٌ يعرف عن ذلك شيئا أو يتخيله ، ثم جاءت المعارف البشرية الحديثة بالحقائق الفَلَكية عن الأرض كما أودعها الله كتابه العظيم .

ثم أعود فأشعر بالعَجَب العُجَاب من هؤلاء الذين يَتَّبعُون ما تشابه من القرآن لِيتَهجَّموا عليه ويشككوا في نسبته إلي الله ، أعجب عندما أنظر في كتابهم فأجد صورة للأرض وهي ثابتة علي ماء . فلا هي كرة ولا هي تدور ولا هي تتحرك ، وهذه الصورة رسمها شراح كتابهم علي أنهم يشرحون كلام الله فيه ، وكل دارس للتاريخ يعلم ماذا فعلوا بجاليليو وغيره ممن بدءوا الحديث عن كروية الأرض وحركتها منذ حوالي أربعة قرون !!

فكيف يكون هذا الكلام مَنْسوبًا إلي الله !؟ وكيف يكون هذا التخريف مُنَزَّلاً من الله !؟ حاشا لله عز وجل ، ثم كتابهم هذا يستطيع الدارس له أن يعثر علي آلاف التَّنَاقضات ، فكيف يكون مُنَزَّلاً من الله !؟ إن الله تعالي لم يتعهَّد بحفظه مثل ما تَعهَّد بحفظ القرآن ، فلما أخبر القرآن أن الله أنزل الزبور والتوراة والإنجيل آمنا بها كما أُنْزِلت بلا تحريف ، كما آمنا بالقرآن وأنه مُهَيْمن علي ما سبقه من الكتب ، أيْ شاهد مؤتمن ، فإذا حُرِّفَت وظهر فيها الاختلاف والباطل ، كان القرآن مقرًّا لما فيها من الحق والصدق ، مكذِّبًا لما فيها من التحريف والباطل

.

إن خاصة العقل لا تقبل أبدا نسبة كتاب إلي الله إن كان فيه أي نوع من أنواع الخطأ ، لأن الله تعالي لا يخطئ ولا يضل ولا يَنْسَي – سبحانه وتعالي – وعلي ذلك لا يمكن إثبات أن كتبهم الموجودة بأيديهم الآن أنها من عند الله ، ولكن يبقي القرآن هو الشاهد الوحيد علي أن أصلها منزل من الله ، هذا إن نَحَّينا جانبا تقليد الآباء واتباع الأهواء .

فما لهؤلاء المتهجِّمين يحاولون هدمَ الشاهدِ الأمين الوحيد علي أن أصل كتابهم منزل من عند الله عز وجل !!!

– اليهود والنسخ –

اليهود لا يقرُّون بالنسخ في شرائع الله زاعمين أن النسخ يستلزم البداء ، والعلم بعد الخفاء وذلك لا يجوز علي الله . وقصدهم في ذلك خبيث سيئ وهو ألاّ يؤمنوا بشريعة أخري تعْد التَّورَاة تَنسَخُها ، وبالتالي فلا إيمان بعيسي ومحمد عليهما الصَلاة وَالسَلام ، وبذلك يُحَرِّفون التَّورَاة بما يُناسِب أهْواءَهم إلي يوم القيامة ، ولا أحد يكشِفُهُم أو يعكّر عليهم .

ـــــ والجواب عليهم من وَجْهَيْن :

(1) ما من نَبّي بعث إلي قوم إلا وهو ينسخ شريعة الذي سبقه ، لأن شرائع الأنبياء جاءت مختلفة تبعا لاختلاف الأزمنة والأمكنة ، وجاءت بسُنَّة التدَرُّج في الأحكام ، لأنها بِمَثابَة

الأدوية للأبْدَان ، وما يصلح لأمة لا يصلح لأخرى ، وما يكون منها في وقت مصلحة قد يكون في وقت آخر مَفْسَده وكل ذلك مبني علي الحكمة ، فالمنسوخ في وقته وحاله أصلح وأنفع ، والنَّاسِخ في وقته وحاله أصْلَحُ وأنْفَع . فَلَيْس في النسخ بداء وإنما هو مقتضى الحِكمة ومعلوم أنَّ البداء هو ظهور الشّيء وبُدُوُّه بعد أن كان خافيا .

(2) لقد أبْطَل الله مَكْرهُم وكشفَ سِترهُم بما يلي :-

قال تعالي :((كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِــلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَمَنِ افْتَرَىَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ فَأُوْلَـــئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)) آل عمران . فتضمنت هذه الآيات بيان كذب اليهود كذبًا صَريحا في إبْطالِهم النَّسخ ، وذلك أنَّ النَّسخ عندهم في التَّوْرَاة لا يَخْفي عليهم ، فالطعام كله كان حلالا لِبَني إسرائيل إلا ما حَرَّم إسرائيلُ (يعقوب) عليه السلام علي نَفْسِه ، بإحْلاَلِ اللهِ له في شَريعة يَعْقوب والأنبياءِ من بَعْده إلي حِين نزولِ التَّورَاة (إلا لحوم الإبل وألبانها حيث حَرَّمها يعقوب علي نفسه وفاء لنذر أو لسبب آخر لا يتَّسع المقام هنا لذكرها) ثم جاءت التَّوْراة بتحريم كثير من المآكل عليهم بعد أن كانت حلالا لهم ، وهذا هو محض النسخ ، وهو موجود في التوراة بوضوح ((قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)) آل عمران . فإن لم تجدوا أن يعقوب لم يحرِّم إلا لحْم الإبل وألبانها ثم حرَّمت التوراة كثيرا من الطَّعَام ،

فقد ظهر كذِبُكم وافترائكم في إنكار نسخ الشرائع ، والحجر علي الله تعالي في نَسْخِها ، وإذن فالنَّسْخ ثابت في التوراة حتى بعد التحريف ، فكيف ينكرونه بعد ذلك !! والحقيقة أنهم يَعْرِفُون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما يعْرِفُونَ أبنَاءَهم ، ولكنهم مَغْضوبٌ عليهم يعرفون وينكَرون .

والأمْر لا يَقْتصر علي نسخ حِلٍّ كثير من الأطعمة ، بل عند اليهود أمثلة من النسخ لا تقبل إلا الإنكار كما يلي :

(1) أُمِرَ آدم عليه السلام بتزويج بناته من بَنيه (حيث لم يكن وقتها إلا ذلك ، فكان الأصلح وإلاّ توقف التَّناسُل) ثم صار ذلك حَرَاما بالاتِّفاق .

(2) كان التسرِّي علي الزوجة مباحا في شريعة إبراهيم عليه السلام ، ولقد تسرِّي إبراهيم عليه السلام بِهَاجر ، ثم حُرِّم مثل ذلك في التوراة .

(3) كان الجمع بين الأختين سائغا وقد فعله يعقوب عليه السلام ، ثم حرِّم ذلك في التَّوْراة وهذا هو النسخ الذي لا يُقِرون به .

(4) أُبيحَ لنوح عليه السلام بعد خروجه من السَّفينة أكل جميع الحيوانات ثم نُسِخ حِلُّ بعضها .

(5) أُمِرَ إبراهيم بذبح ولده إسماعيل ثم نسخ قبل الفعل .

(6) أُمِرَ جمهور بني إسْرَائيل بِقتْل من عَبَدَ العجْلَ منهم ثم دفع عنهم القتل كيلا يستأصلهم ذلك .

(7) ما في كتبهم من البشارة بالنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فإنه لا يفيد وجوب متابعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنه لا يُقْبَلُ عمل إلا علي شريعته التي تنسخ ما قبلها .

فمن كذب علي الله من بعد كل ذلك ، وَأدَّعي أن الله شَرع لهم السَّبْت والتَمسُّك بالتوراة دائما ، وأنه تعالي لم يبعث نبيًّا آخر .. إلي آخر ما يقولون ، فأولئك هم الظالمون .

ولقد جاءهم المَسِيحُ عيسي ابنُ مريم بإحْلال بعض الذي حُرِّم عليهم ، فمن آمن بالمسيح أنه رَسُولٌ من رَبِّ العَالمين ، فقد لزمه أن يؤمن بأن ما في الإنجيل نسَخ بعض ما في التوراة ويَلْزَمه الإقرار بالنسْخ .

أما عند النصارى فالأمر عجب العجاب ، حيث يزعم رؤسَاؤُهم أَنَّ المَسِيح فوَّض إليهم التَّحليلَ والتحريم وتشريع الأحكام بحسب المصلحة ، وأنَّ ما حَلَّلُوه وحرَّموه فقد حَلَّلُه هو وحَرَّمه في السَّماء ، يعني هم يَنْسخون أحْكَام الله ويبدِّلُونها كما يشاءون وبتفويض من المسيح الذي هو الله عندهم – تعالي الله عن ذلك علوا كبيرا – ثم هم يتهجَّمُونَ علي القُرآن بأنه لَيْس كلامَ الله لأن فيه نسْخًا .

فأيُّ الأمريْن أفْضل : أشرعنا الذي سنَّ الله لنا حدوده بِنَفْسِه ، ونسخ منه ما أراد بعلمه ،

وأتَّمه بحيث لا يستطيع الإنس والجنّ أن ينقصوا حرفا منه لانطبَاقِه علي كل زمان ومكان ، وعدم مجافاته لأية حالة من حالات الإنسان ؟ أم شرائع دِينيه أخري حرَّفها كهانها ، ونسخ الوجود أحكامها – بحيث يستحيل العمل بها لمنافاتها لمقتضيات الحياة البشرية من كل وجه ؟! .

عَوْدٌ إلى قضية النسخ من أساسها ، والهدف هنا دَفْعُ شُبُهَاتِ الخُصُوم وكشْفُ زَيْفِهم ورَدّ اباطَيلهم ، وليس الهدف بيان التفاصيل الأصولية والفقيهة فبيانها في كتب الأصول والفقه .

أولاً: حول معنى النسخ : هو رفع (إزالة) حكم دليل شرعي أو لَفْظِة بدليل من الكتاب والسنة . (وسيتضِحُ معناه بالأمثلة من خلال ذكر أقسام النسخ كما يلي) :

أ ــ باعتبار المنسوخ : (1) ما نُسِخ حكمه وبقي لفظه . (وهو الأكثر في القرآن ، ومن أمثلته : حكم المصابرة في القتال ، وحكم الصِّيام) .

* المصابرة : قال تعالى :((يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ يَغْلِبُواْ أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ * الآنَ خَفَّفَ اللّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُواْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)) الأنفال ، وبيان ذلك في نقاط كما يلي : –

* أخبر الله تعالى النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه حسْبهم إلى يوم الدين ، وكافيهم مهما كان عدوهم ، والشرط هو الإيمان واتِّباع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

* أَمَرَ اللهُ نَبيَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحَثِّ المؤمنين وتحريضهم على القتال ومصابرة العَدُو ، أي يُكون صبرُهم أكثر من صبر العدو حتى لو كان عدد عدِّوهم عشرة أضعاف عددهم . لا يسوغ ولا يجوز لهم الفرار أمام العدو ، فواجب على المؤمن أن يصبر ويثبت لمقاتلة العشرة ، والمائةَ لمقاتلة الألف وهكذا ، وجاءت البشارة بغلبة المؤمنين بتأييد الله لهم طالما التزموا شرط المصابرة المأمور به كما تقدم ، فهنا أمران : الأول: البشارة بالنصر ، والثاني : الأمر بثبات المؤمنين لعشرة أمثالهم (لأنه خَبَر بمعنى الأمر) ، وذلك يتطلب إيمانًا عاليًا ، وقلبًا قويًا ، وشجاعة إيمانية ، وإعْدادًا للعدة وتدرُّبا على المصابرة ، وتخلصًا من آثار الذنوب والسيئات ، وغير ذلك مما كان عليه الصدر الأول من الصحابة ، فتحققت البشارة لهم ولمن تبعهم ، ولا تزال تتحقق متى تحققت الأوصاف والشروط السابقة . غير أن الأمر قد شق على بعضهم ، وعَلِمَ علام الغيوب بما سيكون إلى يوم القيامة من ضعف الإيمان وضعف الصبر وضعف الشجاعة والقلوب ، فخفف عن المسلمين برحمته ، ونسخ الحكم الأول (مصابرة الواحد لعشرة) بالحكم الناسخ وهو مصابرة الواحد للإثنين ، والمائة للمائتين ، وهكذا ، ودليل النسخ قوله تعالى :((الآنَ خَفَّفَ اللّهُ عَنكُمْ)) ، ولكنه تعالى ثبَّت البشارة لمن

أراد أن يغتنمها فحقَّق أسبابها أو لمن اضطر إليها ، ولقد أثْبَت التاريخُ ذلك كثيرًا .

هذا عن العدد ، أما عن العتاد الحربي ووسائله المتطورة فهذا له شأن خر .

* فإذا قال قائل : إذا كان الحكم الواجب الذي يعلم الله أنه سيستَقِرٌ إلى يوم الدين هو مصابرة الواحد للاثنين ، فلماذا لم يجعله الله حكمًا واحدًا منذ البداية ، ولا داعي للنسخ الذي يستغله خصوم الإسلام !!

فالجواب : هذه بشارة لم تُنْسَخ ، وامتنان من الله عظيم على المؤمنين إلى يوم الدين (غلبة الواحد لعشرة كفار) إذا فَرَضَت الظروف قتالاً بين المؤمنين وعشرة أمثالهم من الكافرين أو أكثر من ذلك بكثير ، فَصَابروا فالنصر حليفهم بهذه البشارة . وإنما الذي نُسِخ هو الحكم للتخفيف كما تبين ، حيث لو وَجَد المؤمنون عَدُوًّا أكثر من مِثْلَيهم ، فلهم أن يتحوزوا عن القتال ، ولهم أن يفرُّوا ، لا يُلْزمهم الله بمصابرة الواحد لعشرة ، لكن إن فعلوا واضطروا إلى القتال بمصابرتهم ذكر من مثليهم فالبشارة حاضرة ، والواقع التاريخي يؤيد ذلك تمامًا ، فالذي أنزل القرآن هو علام الغيوب ، وهو الذي يُقَلِّب الليل والنهار ، وهو الذي يُقَدِّر الأحداث كما يشاء ، وسأذكر بعد قليل أمثلة على ذلك ليعلم القارئ أنَّ قضية النسخ في القرآن تمثل وَجهًا من وجوه الإعجاز فيه الدالة على أنه كلام العليم الحكيم .

وأيضًا فالأصحاب الذين عاصروا الحكم الأول قبل النسخ ، قد صابروا لذلك وأثبتوا صدقهم ،

وأن قوة المؤمن أساسًا في قلبه ، وأنه بهذا القلب القوي يستطيع المصابرة لعشرة وبالتالي غلبتهم ، وضربوا بذلك المثل والقدوة والأسوة لجميع الأمة ونالوا بذلك أعلى الأجر وأرفع الدرجات .

وأيضًا : فإن حق الله كبير ، ومن حقّه أيضًا أن يصابر المؤمن لعشرة ، وأن يعد العُدَّة لذلك ، وأن يتحمل في الله أقصي ما يستطيع ، والله تعالي عَفوّ ، يحب العفو ، ويسقط كثيرا من حقه لدي عباده ، ومن ذلك هذا الحق الذي نسخه بمصابرة الواحد للاثنين تخفيفا عنهم ، وفي ذلك بيان عفوه عن عباده بهذا النسخ كما مضي ، والله يحب لعباده الإقرار بنعمه وشكرها .

وكلما قرأ المسلم هذه الآيات تذكر هذه المعاني وأكثر . ومن أمثلة الغزوات والمعارك التي انتصر فيها المؤمنون على عشرة أمثالهم وأكثر ما يلي : –

في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

1] سرية سيف البحر رمضان 1 هـــ .

30 مقاتل من المسلمين بقيادة حمزة بن عبد المطلب مقابل 300 من المشركين فيهم أبو جهل .

2] سرية رابغ 1 شوال ا هـــ .

60 مقاتل من المسلمين بقيادة عبيدة بن الحارث أمام 200 بقيادة أبي سفيان بن حرب .

3] غزوة بدر رمضان 2 هـ .

314 صحابي بقيادة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقابل 950 من المشركين بقيادة أبي جهل .

4] غزوة أُحد شوال 3 هـ .

700 صحابي بقيادة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مقابل ثلاثة آلاف من المشركين بقيادة أبي سفيان وفيهم 200 فارس 700 دارع .

5] غزوة حمراء الأسد 670 من المسلمين بقيادة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مقابل 3000 من المشركين .

6] غزوة الخندق شوال 5 هـ .

عدد المسلمين ثلاثة آلاف في مقابل عشرة آلاف من المشركين .

7] غزوة خيبر محرم 7 هـ .

عدد المسلمين 1400 مقاتل بقيادة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

8] فتح مكة رمضان 8 هـ .

عدد جيش المسلمين عشرة آلاف أمام قريش بأسرها .

9] غزوة اليرموك 13 هـ .

عدد المسلمين 40 ألف مقاتل بقيادة خالد بن الوليد ، وجيش الروم 460 ألف مقاتل وانتصر المسلمون .

* الصيام : قال الله تعالى :((أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)) البقرة .

* في ابتداء فرض الصيام كان إذا أفطر أحدهم إِنَّما يحل له الأكْل والشرب والجماع إلى صلاة العشاء فقط ، إلا إذا نام قبل ذلك ، فإذا نام أو صلى العشاء فقدْ بدأ صومه إلى الليلة التالية ، فوجدوا في ذلك مشقة كبيرة ، لان الرجل لو كان صائمًا فنام المغرب قبل أن يفطر فقد حُرِّم عليه الأكل والشرب والجماع إلى الليلة التالية كصيام أهل الكتاب ، وقد وقع ذلك لأحد الصحابة حيث كاد أن يهلك من الجوع والعطش ، ووقع لآخر أن أتى امرأته بعد أن نامت (وذلك لا يحل) حيث قال في نفْسه إِنَّها لم تَنَمْ ولكنها تتعلل ، فغلبته نَفْسُه وشَهْوَتُه على عقله ودينه ، مُبَرِّرةً ومُسَوَّلة ومُطَوِّعة له ذلك بأن الزوجة لم تنم ، فكأن النفس اجتهدت في

إخفاء المخالفة على العقل والوازع الديني حتى يوافقها صاحبها ويفعل ما تهواه وتشتهيه ، وهذا هو اختيان النفس ، في قوله تعالى :((عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ)) البقرة لأن لفظ الخيانة لا يستعمل إلا في المخالفة التي تخفى على المَخُون ، والنفس هنا هي الخائنة ، وصاحبها هو المخون ، والمعني : تختانكم أنفسُكم ، وعبارة القرآن أبلغ ، وهي التي يستعملها الناس في حياتهم ، كالمريض الذي يتناول الممنوعات عليه ويجتهد في ا لتبرير والتهوين وتنويم ضميره ، فيقول له الطبيب : أتخون نفْسَك ــ أو : أَتَغُشُّ نفسك ، أو : أتضحك على نفسِك ، وهكذا . والمراد هنا أنَّ الأمر قد شق عليهم حتى وقع بعضُهم في اختيان النفس ، لكن الصحابي الجليل ذهب بعد ذلك لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قائلاً : يا رسول الله : أعتذر إلى الله من نفسي هذه الخائنة .. وحكى ما حدث منه ، وجاء آخرون أيضًا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فذكروا مثل ذلك من الأكل أو الشرب أو الجماع ، وكلهم يريد الاعتذار والتوبة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ ، لا اعتراضًا على شدة الحكم ، لأن حق الرب الملك الإله أن يحكم ما يريد ، وأن تُبذل الأموال والأنفس في سبيله . فأنزل الله هذه الآية بهذه الرخصة بإحلال الأكل والشرب والجماع (الرَّفث) إلى الفجر (بدلاً من العشاء) بلا تأثير للنوم في ذلك ، فجاء هذا الحكم ناسخًا ورافعًا للحكم الأول ، ودليل النسخ قوله تعالي :((فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ)) فقبل الآن كان الحكم المنسوخ ، والآن جاء الحكم

الناسخ المستقر إلى يوم القيامة .

ولفتةٌ جميلةٌ في قوله تعالى :((وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ)) إذ أن ليالي رمضان – وخصوصًا العَشْر الأواخر – مَغْنَمٌ للمؤمنين ، فإذا كان الله قد أباح لكم مباشرة أزواجكم ليلة الصيام ، فلا يشغلكم ذلك عن الخير الذي كتبه الله لكم من القيام والاعتكاف واغتنام ليلة القدر ، علاوة علي ابتغاء الذرية الصالحة التي تعبد الله لا تشرك به شيئًا ، وابتغاء الآجر الذي يكتبه الله على مباشرة الأزواج .

سؤال : يردده السفهاء ابتغاء فتنة الجهلاء والضعفاء من المسلمين :-

* هل كان الحكم الأول مُشَدّدًا لتجربة احتمال المسلمين واختبار طاقتهم ، فلما تَبيَّن شدة الحكم ومشقة الأمر عليهم تم نَسْخُه بالحُكْمِ الثاني المُخفَّف ؟ بمعنى : هل بَدَا للمشرع من حال الناس ما كان خافيًا عليه ، ولم يكن باديًا له فاضطر إلى تعديل الأمر ليناسب أحوال الناس ؟ ، وإذا كان كذلك فلا يمكن للقرآن أن يكون كلام الله الذي يعلم كل شيء عن الخلق إلى يوم الدين وما بَعْده ، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، فالبداء عليه محال ، وكان الأيسر : الابتداء بالحكم الثاني ، والثبات عليه بلا نسخ .

الجواب سأجعله في نقاط مركزة :-

* الله تعالى هو الرب المالك الذي له ملك كل شيء ، وكل الخلق مماليكه ، فيأمر بما يشاء

وينهى عما يشاء ، ويثبت ما يشاء وينسخ ما يشاء بما يشاء ، ولا يفعل شيئًا من ذلك إلا لحكمة بالغة ، فما من حُكْمٍ إلا وهو تابع للحِكْمةِ ، والحكمةُ تختلف باختلاف الناس وزمانهم ومكانهم ومصلحتهم ، لا باختلاف علم الحاكم حاشا لله عَزَّ وَجَلَّ .

* فترة الرسالة ثلاث وعشرون سنة ، ابتدأت بقوم على الجاهلية الجهلاء وانتهت بكمال الدين وتمام النعمة بما يسع جميع الناس في كل بقاع الأرض على مدار القرون إلى يوم الدين ، وبما لا يجافي أية حالة من حالات الإنسان ، فلن تحدث قضية إلا ولها مَثَلٌ في الكتاب والسنة ، وانتهت الرسالة والأمَّة في غاية الرقيّ الإنساني ، وغاية الكمال البشري ، وإنما تم ذلك بالتربية التدريجية ، والتدرج في الأحكام بمراعاة الأصلح والأنفع لكل حال ولكل ظرف ، مع ما يناسب قابلية الناس في سنوات الرسالة ليقدِّموا القدوة اللازمة لجميع الدرجات للناس كافة إلى آخر الزمان .

* الله تعالى يحب أن يتعرف إلى عباده بأسمائه وصفاته ، ويَمْتَنُّ عليهم بمقتضياتها ، ومقتضى العفو في الآية ظاهر في قوله تعالى :((فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ)) ، وحق الله علينا كبير لا نبلغه ولا نستطيعه ، ولا حل لهذه المعضلة إلا عفوُه عَزَّ وَجَلَّ ، حيث ترك أكثر حقه لدينا ولم يطالبنا إلا بما جاء به الشرع ، ففي هذه المسألة فرض علينا الصيام بالحكم الأول المشدَّد الذي شق على الأصحاب وهم خير القرون ، فجاء التخفيف بالحُكْم الناسخ ، وذلك

بمقتضى العفو أيضًا ، ثم إذا نسينا أو أخطأنا سألناه عفوًا آخر مقابلاً للخطأ والنسيان وهكذا أنواع من العفو ، وأيضًا فالتخفيف هو من مقتضى الرحمة والحِكْمة وأيضًا توبة الله عليهم بعد هذا الظرف من الشدة إنما هي فضل من الله يرفعهم بها درجات عنده لأنهم صادقون كما تبين ، حيث بصدقهم صار اختيانهم لأنفسهم في هذه الشدة كان سببا قدره الله لتوبته عليهم ، كما قال تعالى :((لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ)) التوبة .

* عندما يقرأ المسلم آية الصيام في ليالي الصيام وهو يتنعم بالمآكل والمشارب ومباشرة زوجه مع عمله بما كان قبل النسخ ، فما أجدره أن يشكر نعمة الله في عفوه هذا الذي لا ينسى ، كما أنه إذا تعرض لظروف شديدة طارئة في ليالي وأيام الصيام ، فما أجدره أن يذكر الاقتداء بهؤلاء الصادقين ويصبر ويستعين بالله .

* فإذا تبينت هذه الفوائد والحِكم ، وهي قليل من كثير ، علمنا أن قضية النسخ في القرآن ليست قادحة في نسبته إلى الله ، بل مثبتة لأنه كلام الحكيم العليم ، قال تعالى :((وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ)) النمل ، وعلمنا أيضًا أن هؤلاء المعترضين سفهاء لا يفرقون بين البداء أو العلم بعد الخفاء وبين الأحكام التابعة للحكمة التي تختلف باختلاف الناس ، حيث الحاكم عَزَّ وَجَلَّ يعلم أن هذا الحكم في هذا الزمان أو لهذه الأمة مناسب ، وفي زمن آخر أو

لأمة أخرى غير مناسب ، ولهذا كان النسخ من مقتضى الحكمة والعلم لا مخالفًا لهما .

(3) ما نُسَخَ لفظه وبقي حكمه : وقع ذلك في آية واحدة : هي آية الرَّجْم نسخ لفظها وبقي حكمها ، فرجم النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ورجم الخلفاء بعده ، وما زال حكم الرجم باقيًا إلى يومنا هذا وسيبقى إلى يوم القيامة . وهو حكم الزاني المحصن (أي الذي سبق له زواج ، وجامع امرأته في نكاح صحيح) ، أما دليل آية الرجم أنها كانت في القرآن ، فهو ما ثبت في الصحيحين من حديث ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه وهو عَلَى الْمِنْبَرِ يخطب الناس قال :((فَكَانَ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ آيَةُ الرَّجْمِ ، فَقَرَأْنَاهَا وَعَقَلْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا ، رَجَمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ ، فَأَخْشَى إِنْ طَالَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ : وَاللَّهِ مَا نَجِدُ آيَةَ الرَّجْمِ فِي كِتَابِ اللَّهِ ! فَيَضِلُّوا بِتَرْكِ فَرِيضَةٍ أَنْزَلَهَا اللَّهُ ، وَالرَّجْمُ فِي كِتَابِ اللَّهِ حَقٌّ عَلَى مَنْ زَنَى إِذَا أُحْصِنَ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ إِذَا قَامَتْ الْبَيِّنَةُ أَوْ كَانَ الْحَبَلُ أَوْ الِاعْتِرَافُ))

فإعلان عمر رضي الله عنه ذلك على المنبر والصحابة جالسون ساكتون يدل على أنه محل إجماع بينهم أن هذا كان مما نزل من القرآن ، وأن حكم الرجم ثابت لم ينسخ لأن الخلفاء

رَجَمُوا بعد موته صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، والنَّسخ لا يكون إلا بالوحي في حياته صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وعمر – رضي الله عنه هو المحدث الملهم – يقول :((فَأَخْشَى إِنْ طَالَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ : وَاللَّهِ مَا نَجِدُ آيَةَ الرَّجْمِ فِي كِتَابِ اللَّهِ)) . وأزماننا هذه والتي قبلها قد وقع فيها ما توقَّعه عمر رضي الله عنه ، ووجدنا أناسًا أنكروا الرجم بحجة أنه ليس ثابتًا في القرآن الآن (لأنه نُسِخ) بل وَجْدنا من يقول بوحشية الرجم موافقًا ومجاريًا ومتأثرًا بكلام المُلْحِدين والدُّعَّار ، فلا حول ولا قوة إلا الله العلي العظيم .

سؤال : إذا كان حكم الآية ثابتًا وباقيًا إلى نهاية الدنيا ، فلماذا نسخ لفظ الآية ؟ ألم يكن الأولى أن تظل باقية فلا تكون فتنة ، ولا يجترئ أحد على إنكار الحكم !؟

الجواب : (1) الله تعالى له كمال الملك والعلم والقدرة والحكمة ، فيثبت ما يشاء وينسخ ما يشاء بمقتضى علمه وحكمته وقدرته وملكه ، والمؤمنون مُسَلِّمون لَهُ سبحانه في ذلك وفي كل شيء ، سواء علموا من تلك الحكمة أو لم يعملوها ، ولا يمنعهم ذلك من سؤال المسترشد المستنصح المستفهم ، أما غيرهم فيسال سؤال المعترض المتِّبع لما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، فيتبيَّن الذين صدقوا ، ويتميَّز عنهم الكاذبون والمرتابون .

قال تعالى:((وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا)) الإسراء ، وقال :((مَّا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ

)) آل عمران ، وقد سبق بيان ذلك في المقدمة ، فقضية النسخ هي مما يختبر ويمتحن به الناس ، وبالتالي لا وجه لقول السائل : (ألم يكن الأوْلى إبقاء لفظ الآية) لأن نسخ اللَّفظ أمُرٌ يراد ، وكم كشف الله به من أمر الكاذبين والمُدِّعين .

(2) الكتاب والسُّنَّة أصْلان عظيمان لا يفترقان ، ولا يُغْني أَحَدُهُما عن الآخر فإذا كان لفظ الآية قد رُفِع ، فإنَّ السُّنَّة القولية والعملية تغني وكذلك الإجماع ، فلا تأثير لرفع لفظ الآية في ثبوت الحكم والعمل به إلى يوم القيامة .

والمؤمنون الصادقون لم يزدادوا بهذا النسخ إلا إيمانًا ورسوخًا على سنة نبيهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

(3) هذا المسلك من المؤمنين بِالعمل بنص منسوخ لَفْظُه هو مما يبين أفضلية هذه الأمةِ الوَسَط ، في مقابلة مسلك أخبث الأمم أمة اليهود مع آية الرجم الثابتة عندهم في التوراة لم تنسخ لفظًا ولا حكمًا ومع ذلك اجتهدوا في كتمانها والتحيل في إلغاء حكمها من حياتهم ، لقد حاولوا كتمه لما كثر الزنا في أشرافهم ، قالوا كيف نرجم الأشراف ؟ فأحدثوا لهم عقوبة ، وهي أن يُسوَّد وجه الزاني والزانية ، وأن يركبا على حمار أحدهما وجهه إلى وجه الحمار والثاني وجهه إلى دبر الحمار ، ويطاف بهما في السوق ، ويقال هذان زانيان ، وقالوا : فإذا طفنا بهم في السوق ورجعنا بهم إلى البيت اغتسلا بصابون ومزيل للسواد ثم عادا على

حالهما ، وانتهى الأمر ، ولكن مع ذلك كانوا في قلق من هذا ، وليسوا مطمئنين ، فلما هاجر النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووقع الزنا بين رجل منهم وامرأة قالوا : اذهبوا إلى هذا الرجل لعلكم تجدون في شرعه حدًا دون الرجم ، فجاءوا إلى النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحكم عليهم بما في التوراة ، فجاءوا بالتوراة يتلونها فوضع الرجل يده على آية الرجم ، ولكن كان عندهم الحبر عبد الله بن سلام رضي الله عنه وهو حبر من أحبار اليهود فقال له : ارفع يدك فلما رفع يده فإذا بآية الرجم تلوح بيِّنةَ فأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ برجمهما فَرُجما ، فانظر إلى أمة عملت بنص مفقود لفظه ثابت حكمه ، وإلى أمة حاولت كتم نَصٍّ موجود في التوراة وإماتة حكم الله فيه يتبين لك خيريَّة هذه الأمة ، وحكمة نسخ لفظ آية الرجم ، وأن النسخ في القرآن هو أحد وجوه الإعجاز فيه .

* سؤال فرعي عن حكم الرجم : لماذا جاء حَدُّ الزانية أو الزاني المحصن رجمًا بالحجارة المتوسطة الحجم حتى الموت ، وذلك من أشنع القتل ، لأنه قتل مع تعذيب مشهود أمام الناس ، حتى إن من خصوم الإسلام من يتهجم عليه في الرجم واصفًا إياه بالبشاعة والوحشية ومُجَافاة الآدمية ، فضلاً على أن يكون تنزيلاً من الرحمن الرحيم ؟ .

الجواب : – هذا مما يقال عمومًا على العقوبات الشرعية والحدود كالقصاص ، وقطع يد السارق وقتل المرتد ، ورجم الزاني المحصن ، وجلد غير المحصن مائة جلدة ، وجلد شارب

الخمر أربعين جلدة ، وحد القذف وحد الحرابة وما شابه ، ولقد صُنِفْت في ذلك الكتب والرسائل ، وهنا لا يتسع المجال إلا لنقاط جامعة بإذن الله .

(1) إن قاعدة العقوبات حتى عند مشرِّعي القوانين الوضعية هي أن قَسوْة العقوبة إنما تحددها خطورة الجريمة فلا بد من التلاؤم بينهما ، وجريمة الزنا في الإسلام هي من أخطر الجرائم التي تعصف بالدين والعرض والنسل والنفس ، والمحصن قد عرف سبيل الإحصان وتمكن منه وذاقه ، بخلاف البكر الذي لم يحصن بعد ، فالرجم متناسب جدًا مع الجريمة وخطورتها .

أما عند خصوم الإسلام ، فالزنا حرِّيةٌ شخصية وليس جريمة فطالما أنه بالتراضي فهو قائم على الحب والتلذذ بلا مفاسد ، سواء بحمل أو بغير حمل ، وقول الخصوم هذا إنما هو ظلم وجهل كما قال تعالى :((وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)) الأحزاب .

(2) نقول لهم : هذا شرع الله المنزل ومعه دليله أنه منزل من عند الله ، فهل أنتم أعلم وأرأف !!! .

وسأكتفي بهذه الأمثلة الثلاثة (آيتا المصابرة ــ أيةُ الصِّيَام ــ آية الرجم) لأنها تكفي في بَيَان مَعْنَى النَّسْخ وحِكْمته وأنه أحد وجوه الإعجاز القرآني ، وسنوجز الباقي دون تفصيل .

3 ــ ما نُسِخَ حُكْمُه ولفظه :

قَالَتْ عَائِشَةَ رضي الله عنها : كَانَ فِيمَا أُنْزِلَ مِنْ الْقُرْآنِ :((عَشْرُ رَضَعَاتٍ مَعْلُومَاتٍ يُحَرِّمْنَ ثُمَّ نُسِخْنَ بِخَمْسٍ مَعْلُومَاتٍ)) .

أقسام النَّسْخ باعتبار الناسخ :-

1 ــ نسخ القرن بالقرآن ، ومثاله : آيتا المصابرة والصيام كما سبق .

2 ــ نسْخ السُّنَّة بالقرآن ، ومثاله : نسخ استقبال بيت المقدس الثابت بالسُّنة باستقبال الكعبة الثابت بقوله تعالى:((فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ .. الآية)) البقرة ، وهذا أول نسخ وقع في القرآن ، ولأهميته سُنطِيلُ الكلام فيه .

3 ــ نسخُ السُّنَّة بِالسُّنَّة ، ومثاله قوله صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :((إِنِّي كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا)) .

4 ــ نسخُ القرآنِ بالسُّنَّة : وهذا لم نَجِدْ له مثالاً سَليمًا ، والذي وجدناه أن الحديث يتَّفق مع الآية الناسخة ويُبَيِّنُها ، ولا ينفرد بالنسخ .

((حكمة النسْخ))

ذكرت من حكمة النَّسْخ في الأمثلة الثلاثة السَّابقة ما يكفي لكل مثال بخصوصه ، وسأذكر

بيان الحكمة العامة إتمامًا للفائدةِ :

(1) مراعاة مصالح العباد بتشريع ما هو أنفع في دينهم ودنياهم : –

الأحكام تابعة للمصالح ، والمصالح تختلف من حال إلى حال ، ومن زمان ومكان إلى زمان ومكان . ولذلك في النَّسْخ العَام يأتي النبيُّ إلى قومه فَيَنْسخ شَريعَة الذي سَبَقه كما قال تعالى:((لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا)) المائدة حتى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَسخت شريعته الخاتمة جميع الشرائع لأن كل شريعة تتناسب زمانها ومكانها وقومها ، والخاتمة تناسب الناس كافَّة في كل الأرض إلى يوم القيامة ، ولا يقدر على ذلك إلا الله ، حيث لا تحدث مسألة في كل ذلك إلا وحلُّها في كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستنبطه العلماء الراسخون في العلم ، ومن ثم نعلم أن شريعة كهذه لا يصلح فرضها على العرب دفعة واحدة وهم في أوَّل أمْرهم من الجاهلية والظُّلُمات . نحن الآن عندما يريد الطالب أن يدرس تلك الشريعة فإن عليه أن يُتْقِنَ علوم الآلة أولاً : (اللغة العربية ــ أصول الفقه ــ علم المصطلح ، وهكذا) وقد يَسْتَغْرِقُ في ذلك عِدَّة سَنَوات ، حَتَّى يستطيع أن يتابع الفُقَهاء ويفهم . إِنَّهَا شريعة أحْكِمَت ثُمَّ فُصِّلت لكل الخلق مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خبير علامٍ للغيوب ، سبحانه وتعالى ، ومن ثم كان النَّسْخُ الخاص داخل الشريعة الواحدة ــ خصوصًا في هذه الشريعة ــ إحدى الدَّعائم الأساسية حتى تَسْتَقِر الشريعة على ما استقرت عليه من الكمال

والرُّقيّ كما تبيَّن في الأمثلة السابقة ، ويوضح ذلك أكثر ما يلي : –

2) التطور في التشريع حتى يبلغ الكمال :

فلم تجب الصلاة إلا قبل الهجرة بنحو ثلاث أو خمس سنوات على الأكثر ، وكانت ركعتين ، فلما هاجر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زيد في صلاة الحضر ، وكذلك الزكاة وجبت في السنة الثانية للهجرة ، أو بُيِّنَتْ مقاديرها وأنواعها ، والصوم وجب في السَّنَة الثانية للهجرة ، والحج في التاسعة ، وهكذا .

والخمر هي اشهر وأبْرَز مثال على مراعاة المصالح وعلى التَّطَوُّر في التَّشريع ، حيث كان الناسُ يألفونها ويتلذذون بها ، ولم يكن عندهم من قوة الإيمان ما يتقبلون به التحريم ، ولا كان إيمانهم ودينهم تَامًّا بحيث لم يبق فيه نقص إلا ما يحصل بشرب الخمر ، بل قضايا الإيمان والاعتقاد أهم وأولى بكثير من قضية الخمر ، فلو نزل التحريم مرَّة واحدة لكان شاقًا عليهم ، وربَّما لا يتمكنون من الانتهاء عنه فورًا ، ولهذا جاء التدرج كما يلي : أ ــ الإباحة كما كانت عادتهم .

ب ــ مرحلة التَّعْريض كما قال تعالى :((قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا)) البقرة ، فالعاقل يتركها ولكنه يرى في نَفْسهِ أنه في حل إن فَعَلَهُما .

جـــ ــ التوقيت كما قال تعالى:((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّىَ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ)) النساء ، وذلك يستلزم ألا يسكر المسلم حين أوقات الصلاة ، وإلا وقع فيما نهى الله عنه فهذا يُخَفِّف من شُرْبها .

د ــ مَرْحَل التأبِيدُ :((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)) المائدة ، حيث حُرِّمت الخمر وصارت خبيثةً كلها بهذا التحريم وذلك في وقت ازدياد الإيمان وقبول التحريم والتنفيذ الفَوْري بإراقة الخمور على الأرض في شوارع المدينة ، ولم يتم التحريم إلا في السنة السادسة للهجرة ، أي بعد 19 سنة من البعثة ، وكان تقبُّل الناس للتحريم آية وعلامة على النظام الإسلامي المحكم .

3 ــ اختبار المكلفين بقيامهم بوظيفة الشُّكر إذا كان النسخ إلى أخَفَّ ، وبوظيفة الصبر ، إذا كان النسخ إلى أثقل حيث يقول سمعنا وأطعنا ولا يكون متبعًا لهواه بل يتَّبع الهدى .

4 ــ اختبار المكَلَّفين باستعدادهم لقبول التحول من حكم لآخر ورضاهم بذلك ، فإذا قيل للمؤمنين هذا حلال : فعلوه ، وإذا قيل بعد ذلك هذا حرام أمْسَكُوا عنه وليس لهم الخِيَرةُ من أمرهم ، أمَّا ضعفاء الإيمان وَالذين في قلوبهم مرض فلا يرضون بذلك التحول في الأحكام :

أحيانا كذا وأحيانا كذا ما هذا ّ!!! فيكبر الأمر عليهم وتعظم عليهم المحنة وقد يرتد بعضهم كما حدث في مسألة القبلة .

= ما يَمْتَنِع نَسْخُه =

(1) الأخبار : لأن نسْخ أحد الخبرين يستلزم أن يكون أحدهما كذبًا أو وهما ، وذلك محال في حق اللهِ ورَسُولِه ، إلا أن يكون الحكم أتى بصورة الخبر فلا يمتنع نسخه لأن النسخ مَحِلُّه الحكم .

(2) الأحكام التي تكون مصلحة في كل زمان ومكان مثل التوحيد وأصول الإيمان وأصول العبادات ومكارم الأخلاق من الصدق والعفاف والكرم والشجاعة ونحو ذلك ، وكذلك النهي عن القبائح مثل الكفر والشرك ومساوئ الأخلاق من الكذب والفجور والبخل والجبن ونحو ذلك .

((تحويل القبلة))

لكل أمة من الأمم قبلة يتوجهون إليها في صلاتهم ، ومن لم يستقبل قِبْلَتَهم فليس منهم ، سواء كانت قبلتهم بوحي من الله أو كانت باصطلاح رؤسائهم وتحريفهم ، فأمَّا قبلة اليهود فليس في التوراة أمرٌ باستقبال الصَّخرة البَّتة ، وإنما كانوا ينصبون التابوت ويصلون إليه من حيث

خرجوا ، فإذا قَدِمُوا إلى القدس نصبوه على الصخرة وصلَّوا إليه ، فلما رُفع واخْتَفى عنهم صلَّوا إلى موضعه وهو الصخرة ، وتلك قصة قبلتهم ، لا نعلم فيها وَحْيًا من الله ، بل الذي يترجح عند كثير من علماء المسلمين أنَّ الكعبة هي قبلة جميع الأنبياء ، خصوصًا أنبياء بني إسرائيل وهم أبناء إبراهيم عليه السلام الذي بنى الكعبة وهي قبلته فهم أولى الناس به ، قال تعالى:((إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّـنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا .. الآية)) آل عمران .

فكيف لأبْناء الأنبياء يخالفون قبلة أبيهم ، إلا أن يكون بأمْر من الله ، وذلك لا يَثْبُت بِنَصٍّ في التَّوراة ولا في غيرها ، بل أخبرنا الله عَزَّ وَجَلَّ بأنَّ الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم ، أي ليعلمون أن قبلة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ستستقر على الكعبة وأنها قبلة الأنبياء .

2 ــ قال تعالى:((وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)) البقرة ، والمعنى : ولله الجهات كلها فأينما تتوجهوا وتستقبلوا فثم قبلة الله وَوَجْهَتُه ، لكن الشأن أن تكون القبلة بأمر الله بالوحي حيثما وجَّهَنا تَوْجَّهْنا امتثالاً لأمره .

ومعلوم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا صلى النافلة على ظهْر دابته ، وجَّهَهَا إلى القبلة في تكبيرة الإحرام ثم يدعها تسير في اتجاهها حسب الطريق ، وفي ذلك نزلت تلك

الآية :((فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ)) البقرة فيما رواه أحمد ومسلم .

3 ــ ذكر المفسرون عن ابن عباس رضي الله عنه كان أول ما نُسِخَ من القرآن القبلة ، وذلك أنّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما هاجر إلى المدينة وكان اكثر أهلها اليهود ، وأمره الله أن يستقبل بيت المقدس ، ففرحت اليهود ، فاستقبلها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بضعة عشر شهرًا (16 أو 17) شهرًا ، وقال اليهود : يخالفنا محمد في ديننا ويتبع قِبْلَتنا ، ولولا ديننا لم يدر أين يتوجه في صلاته ، فكره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ البقاء علي قبلتهم ، وكان يحب قبلة إبراهيم عليه السلام فكان يدعو الله وينظر إلى السَّماء ، فأنزل اللهُ قوله:((قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ)) البقرة فاستغلها اليهود وقالوا :((مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا)) البقرة فقال تعالى:((قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)) البقرة .

روي البخاري عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا ، وَكَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبْلَتُهُ قِبَلَ الْبَيْتِ ، وَأَنَّهُ صَلَّى أَوْ صلاة صَلَّاهَا (إلي البيت) صَلَاةَ الْعَصْرِ ، وَصَلَّى مَعَهُ قَوْمٌ ، فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ

كَانَ صلَّى مَعَهُ فَمَرَّ عَلَى أَهْلِ الْمَسْجِدِ وَهُمْ رَاكِعُونَ قَالَ : أَشْهَدُ بِاللَّهِ لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِبَلَ مَكَّةَ ، فَدَارُوا كَمَا هُمْ قِبَلَ الْبَيْتِ . وَكَانَ الَّذِي مَاتَ عَلَى الْقِبْلَةِ قَبْلَ أَنْ تُحَوَّلَ قِبَلَ الْبَيْتِ رِجَالٌ قُتِلُوا لَمْ نَدْرِ مَا نَقُولُ فِيهِمْ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ((وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)) .

4 ــ لقد علم الله عَزَّ وَجَلَّ ما سيقول خصوم الإسلام من اليهود والمنافقين والمشركين في تحويل القبلة ، فقال تعالى:((سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)) البقرة ، وحدث ما اخبر به علام الغيوب حيث قالوا :

ــ إن كانت القبلة الأولى حقًا فقد تركتم الحقَّ ، وإن كانت باطلاً فقد كنتم على باطل .

ــ لو كان نبيًّا ما ترك قبلة الأنبياء قبله (بزعمهم أن الصخرة كانت قبلة الأنبياء) .

ــ لو كان نبيًّا ما كان يفعل اليوم شيئًا وغدا خلافه .

ــ وقال المشركون في مكة وغيرها : قد رجع إلى قبلتكم فيوشك أن يرجع إلى دينكم .

وعظمت بذلك المحنة على ضعاف الإيمان فارتاب بعضهم وارتد بعضهم ، قال تعالى:((وَإِن

كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ)) البقرة .

ولقد أجاب الله عَزَّ وَجَلَّ بجواب شافٍ بعد أن قَدَّم له بمقدِّمات تقرِّرُهُ وتوضِّحه ، واستغرقت الإجابة والمقدمات من الآية 104 إلى الآية 150 من سورة البقرة ، والتَّعليقُ على هذه الآيات لبيان بدائعها وروائعها يحتاج إلى رسالة خاصة لا يتَّسع المقام لذكرها هنا ، وسنكتفي بتوجيهات وتنْبِيهات سريعة على الآيات ، وينبغي للقارئ أن يتابع الآيات في المصحف لكي يستوعب ، ويَأخُذ الكتاب بقوة .

ــ سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ (وهم اليهود أساسًا) مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا (وهي بيت المقدس) قُل لِّلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ (فليس جهة من الجهات إلا وهي ملك لله عَزَّ وَجَلَّ ، وبيت المقدس والكعبة جهتان مملوكتان لله يوليهم هذه أو تلك ، فَمَرّدُّ الأمْرِ إلى مشيئْته) يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (فالاتجاه إلى بيت المقدس كان الأصلح والأنفع في وقته وكان هو الصراط المستقيم ، والاتجاه إلى المسجد الحرام هو الأصلح والأنفع في وقته وهو الصراط المستقيم ، ولله في كل ذلك حكم نعلم بعضها ونجهل أكثرها ، فَمَرَدُّ الأمْر إلى ملكيته للجهات وإلى مشيئته التي تكون بحكمته واختياره الأنفع والأصلح دائمًا) .

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا (أعدل الأمم وأخيرها في كل أمور الدين ، وَسَطًا في الأنبياء بيْن من غُلا فيهم كالنصارى وبين من جفاهم كاليهود ، أما المسلمون فقد آمنوا بهم كلهم على

الوجه اللائق بذلك ، ووسطًا في الشريعة ، لا تشديدات اليهود وأحبارهم ، ولا تهاون النصارى ، ووسطًا في باب الطهارة والمطعام ، لا كاليهود الذين لا تصح لهم صلاة إلا في بيعهم وكَنَائِسهم ، ولا يطهرهم الماء من النجاسات ، وقد حُرِّمت عليهم الطيبات عقوبة لهم ، ولا كالنصارى الذين لا يُنَجِّسون شيئًا ولا يحرِّمون شيئًا ، بل أباحوا ما دَبَّ وَدَرَج ، فلهذه الأمة من الدين أكمله ، ومن الأخلاق أجَلَّها ، ومن الأعمال أفضلها) . لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ (بسبب عدالتهم وحكمهم بالقسط ، فَيحْكُمُون على الناس من سائر أهل الأديان ، ومن ذلك ما يكون يوم القيامة إذا سأل الله تعالى المرسلين عن تَبْلِيغهم ، والأمم المكذبة عن ذلك فأنكروا أنَّ الأنبياء بلَّغتهم ، عندئذ يَسْتَشهدُ الأنبياء بهذه الأمة لما عندها من الكتاب المُهَيْمن على ما سبقه من الكتب ، وإِخْبَارِه عن بلاغ الأنبياء كما أُمِرُوا) وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا (فيزكي شهادة أمَّته التي هي أكمل الأمم وأجْوَدُها وأتمها إخلاصًا ومتابعة) . وهنا سؤال : لماذا لم يستقر الأمر منذ البداية على المسجد الحرام فيكون أبعد للمسلمين عن الفتن والريبة والقيل والقال وما كان من الرِّدَة وغيرها ، لا سِيَّمَا والكعبة هي أفضل بقاع الأرض ، وجهتها أفضل الجهات ، والمسجد الحرام أفضل من الأقصى وغيْره ؟ .

والجواب من الله تعالى :((وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ)) فالمُرَاد هو اختبار الناس

وامتحانهم في إيمانهم كما سبق ، فيتميّز بذلك الراسخ في الإيمان المُسَلِّم للرسول المُنْقَاد له ممن يَعْبُد اللهَ على حرف فينقلبُ بأدنى شبهة ، فيعلم الله معلومه الغيبي عيانًا مُشاهدًا ، علمًا يتعلَّق به الثواب والعقاب ويقوم به عدل الله عَزَّ وَجَلَّ حيث لا يؤاخذهم إلا بما كان منهم فعلاً لا لمجرَّد علمه تعالى . ولقد تَبَيَّن أنّ اليهود فرحوا باستقبال النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِقِبْلَتِهم ومع ذلك لم يتبعوه بل كانوا أشد المحاربين له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، كما أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن مُتَّبعًا قبلتهم ، بل كان متجهًا إلى الأقصى بأمر الله تعالى ، فقال :((وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ .. الآية)) البقرة ، ثم قال : ((الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)) ، قال عبد الله بن سلام وكان واحدًا من أحبار اليهود قبل أن يسلم ، فقال : لقد عرفته حين رأيته كمعرفتي لابْنِي ومعرفتي لمحمَّدٍ أشد . ولكن فريقًا منهم ليكتمون الحقَّ الذي يعلمونه عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واستقباله للكعبة كما سبق بيانه في قوله تعالى:((وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ)) البقرة فالضمير في أنه لم يذكر له مُفَسِّرٌ إلا ما في السِّيَاق وهو قوله :((فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ)) البقرة ، ثم قال تعالى:((وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا)) البقرة أي مُوَلِّيها وجْهَه ، ووجهتكم الكعبة ((فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ)) ، فاغتنموا أنتم أيها المسلمون هذا الخير وكونوا فيه سابقين ولا

ترددوا فيه ، ثم جاء الأمر مكررًا مرتين خلاف المرة الأولى ، وهو الأمر باستقبال المسجد الحرام تفخيمًا له وتعظيمًا وبيانًا بأنه من أركان المِلَّة ، وأنه من فضل الله على الأمة الوسط ، وأن الله تعالى جعل الكعبة البيت الحرام قيامًا للناس ، فإذا هدمت الكعبة فقد انتهى قيام الناس في الأرض ، وتقوم القيامة .

أما التَّمْهِيد والمقدمات لتحويل القبلة الذي هو أمر كبير وتعظم به الفتنة ، فقد جاء ابتداء من الآية 104 من السورة كما يلي : -

* نهى الله المؤمنين عن التَّشبُّه بأهْل الكتاب في سوء أدبهم على الرسول وعلى ما جاء به ، فقال :((لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا وَاسْمَعُوا)) وأخْبر تعالى أنهم لحسدهم ما يودُّون أنّ الله ينزل علينا شيئًا من الكتاب والحكمة ، فقال :((مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)) البقرة ، فَبَيَّن اللهُ نعمته على المؤمنين وأنها لن تَنْقُص بل تزداد ، فإذا كان قد نسخ بعض القرآن أو أنْسِيَ بَعْضُه ، فإنه تعالى يأتي بخير من ذلك أو مثله ، فلا يزال المؤمنون في نعمة من الله سبحانه ((مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا)) البقرة ، وهذه الخيرية والأفضلية من وجهين : وجه لازم حيث تكون الآية في نفسها أفضل من الآية المنسوخة (كفضل آية الكرسي وفاتحة الكتاب وسورة الإخلاص على غيرها من الكتاب) .

وَوَجْهٌ عارِض بحيث تكون الآية الناسخة أو البديلة أفضل في وقتها وتكون المنسوخة افضل في وقتها . على أنّ هذه الآية ((مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا .. الآية)) تحتاج في بيان كنوزها إلى إطالة الكلام لاسْتيفَاء أقوال العلماء فيها ، واستيفاء معنى القراءة الثانية ((أو نَنْسأها)) لكني لا أريد أن أشق على عامة الناس فسأكتفي فيها بما ذكرت .

ثم بَيَّن اللهُ أن ذلك النسخ والإنساء والإتيان بخير منه أو مثله ، أنه على الله يَسير لأنه تعالى على كل شيءٍ قدير ، إذ أن الأنفع والأصلح والأنسب منذ الرسالة وإلى يوم الدين على امتداد الزمان واتساع المكان في كل بقاع الأرض واختلاف الناس وأجناسهم وألسنتهم وظروفهم وبيئاتهم وأحداثهم والصراعات التي لا حصر لها ، والتطورات التي لا حدود لها وما شابه ، فتقدير الآية الأصلح لكل هذا لا يقدر عليه إلا الله العليم الحكيم الخبير القدير الذي لا منازع له في ملكه ، بل له ملك السماوات والأرض ، وهو الذي يُقَدِّر الأحداث إلى يوم القيامة بما يشاء ، ويُنزِّل من الكتاب ما هو الأنسب لكل هذه الأحداث ، لا يُسْأَل عَمَّا يَفْعَل وهم يُسْأَلون . قال تعالى: ((.. نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ)) من وَلِيٍّ يَجْلِبُ لكم منفعة ولا نصير يدفع عنكم مضرة ، وإنما المنافع والمصالح كلها ودفع المضار بيد الله وحده ، فسلِّموا لله ورسوله ، ولا تنازعوا في شيء من النَّسخ وغيره (ومن ذلك القبلة) ، وإلا

فهل تريدون أن تعترضوا وتسألوا رسول الله تَعَنُّتًا كما سُئل موسى من قبل : ((أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ * وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ .. الآية)) ، فهم يَعْلَمُون الحَقّ وأنَّ الرسُولَ حَق في كل ما جاء به (ومن ذلك القبلة) لكنهم لِحَسَدِهم يُرِيدُونَ وَيَوَدُّون أنْ يستعصي المؤمنون على رَسُول اللهِ (في القِبْلة وغيرها) فَيَرْتدُّوا بعد إيمانهم كافرين ، وعلى ذلك ينبغي الحذَرُ منهم وألا يُسْمَع منهم ، ولا يُقْبل قولُهم (لا في القبلة ولا في غيرها) كما ينبغي معرفة أنهم لَيْسُوا على شيء بإتهام بعضهم لبعض ، وقال تعالى:((وَلِلّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)) وسبق بيانها وهي أساسية في المقَدَّمَة لِتحويل القبلة ، وقال تعالى: ((وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى .. الآية)) ، وهذه واضِحَةٌ تَمامًا في قَطْع الأَمَل في إِرْضَائِهم إلاَّ باتِّبَاع مِلّتهم والعِياذُ بالله ، فَلاَ الْتِفَات إليهم في اعتراضهم على القبلة ولا في غيره ، وتَسْتِمرُّ الآيات في التتابع ، حيث ذكر اللهُ البَيْتَ الحَرّام وتَعْظِيمَه وحرمته وذكر بَانيه وأثنى عليه وأوجب اتباع مِلَّتَه ، فقرَّرَ في النُّفُوس بذلك تِوجُّهَهَا إلى البيْت بالتَّعظيم والمَحبَّة ، وإلى بَانيه بالاتِّباع والموالاة والمُوَافقة ، وأَخْبر أنه جعل البيت مثابةً للناس يثوبون إليه ولا يقضون منه وَطَرًا ، فالقلوب دائمة الاشتياق إليه متوجهة إليه

حيث كانت ، كما أخبر أنه أَمر إبراهيم وإسماعيل بتطهيره للطائفين والقائمين والمصلين وأضافه إليه بقوله : ((أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ)) ، وهذه الإضافة هي التي أسكنت في القلوب من مَحَبَّته والشوق إليه ما أسْكَنَت ، وَهِيَ التي أَقْبَلت إليه بِأَفئدة العالم إليه ، فلمَّا استقَرَّت هذه الأمور في قلوب أهل الإيمان ، وذُكِّروا بها فكأنها نادتهم أن اسْتَقْبَلُوه في الصَّلاَةِ ، لكن توقَّفَتْ على وُرُودِ الأمْرِ مِنْ رب العالمين ، ووَرَدَ الأمر بعد هذه المقدمات ، لأن تحويل القبلة أمر عظيم كما سَبَق . ولولا الإِطالة لذكرتُ تَفَاصيل الآيات لِيَعْلم الناسُ شيئًا عن عظمة القرآن لكنَّ أهْلَ الزمان دائمًا على عجالة .

ونكتفي بهذا القدر وفيه كفاية .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

ملحوظة : من أراد أن يُرسل ملحوظة أو تعليق للشيخ فليرسله علي هذا الإيميل وسوف يصله إن شاء الله .

eltawhed@islamway.net

كتب فضيلة الشيخ فوزي سعيد – فك الله أسره – علي موقع صيد الفوائد

(www.saaid.net)